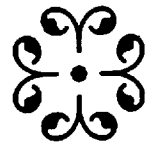

نوح
عليه السلام
ومعجزته الكبرى

هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ ـ وهو إدريس ـ
ابن يرد بن مهلاييل بن قينن بن أنوش بن شيث
ابن آدم أبى البشر ـ عليه السلام ـ كان مولده بعد وفاة
آدم بمائة وست وعشرين سنة،
فيما ذكره ابن جرير وغيره.

وقد بعثه الله تعالى لما عبدَت الأصنامُ والطواغيت، وشرع الناس في الضلالة والكفر، فبعثه الله رحمة للعباد، فكان أوّلَ رسول بُعث إلى أهل الأرض (كما يقول له أهل الموقف يوم القيامة)[1].

وقد اختلفوا في مقدار سنِّه يومَ بُعِثَ، فقيل: كان ابن خمسين سنة. وقيل: ابن ثلاثمائة وخمسين سنة. وقيل: ابن أربعمائة وثمانين سنة. حكاها ابن جرير، وعزا الثالثة منها إلى ابن عباس.

وقد ذكر الله قصته وما كان من قَوْمِه، وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان، والمعجزة العظيمة التي أمره الله بصنعها ـ وهي السفينة ـ وكيف أنجاه الله ومَنْ معه مِنْ أصحاب السفينة، فقد ذكر الله قصة هذا النبي الكريم ومعجزته الكبرى في أكثر من موضع من الكتاب العزيز، قال تعالى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ

(١) حين طمعوا في شفاعته.

تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾[1].

وقال سبحانه وتعالى فى موضع آخر: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾[2].

وقال سبحانه أيضًا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[3].

فبعد تلك القرون الصالحة التى كانت بين آدم ـ عليه السلام ـ وبين نوح ـ عليه السلام ـ حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام وترك عبادة الله، والسبب فى ذلك ما

(١) الأعراف: ٥٩ ـ ٦٤.
(٢) يونس: ٧١ ـ ٧٣.
(٣) العنكبوت: ١٤، ١٥.

رواه البخارى من حديث ابن جريج، عن عطاء عن ابن عباس، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[1] فهذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أَوْحَى الشيطانُ إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابًا[2] وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعْبَدْ، حتى إذا هلك أولئك وانْتَسَخَ العِلْمُ عُبِدت[3].

قال ابن عباس: وصارت هذه الأوثان التى كانت فى قوم نُوحٍ فى العرب بَعْدُ. وهكذا قال عِكْرِمة، والضَّحَّاك، وقتادة، ومحمد بن إسحاق.

وقال ابن جرير فى تفسيره لهذه الآية: إنَّ وَدًّا، وسُواعًا، ويغوثَ، ويعوقَ، ونَسْرًا كانوا قوما صالحين، بين آدم ونوح، وكان لهم أَتْبَاعٌ يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صَوَّرْنَاهُمْ كَانَ أشوقَ لنا إلى العبادة إذا ذَكَرْنَاهُم. فَصَوَّرُوهُم، فلما ماتوا وجاء آخرون دَبَّ إليهم إبليس[4] فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسْقَوْن المطرَ، فعبدوهم. ونعود إلى قصة نوح ـ

(١) نوح: ٢٣.
(٢) الأنصاب: ما نُصِبَ وعُبِدَ من دون الله ـ من تماثيل وأصنام.
(٣) رواه البخارى فى صحيحه (٢/ ٣٨١).
(٤) أى: وَسْوَس إليهم.

عليه السلام ـ مع قومه، حيث قال لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1].

وكان نوح ـ عليه السلام، كما ذكرنا ـ أَوَّلَ رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، كما ثبت فى الصحيحين من حديث رسول الله ﷺ فى الشفاعة[2].

ولقد دعا نوح ـ عليه السلام ـ قَوْمَهُ إلى إقرار عبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان بعظمته، وألاَّ يعبدوا معه صنمًا ولا تمثالاً ولا طَاغوتًا[3] وأن يعترفوا بوحدانيته، وأنه لا إله غيره، ولا رَبَّ سواه، كما أمر الله تعالى بذلك كُلَّ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُ من الرسل.

ظَلَّ نوحٌ يدعو قومه إلى عبادة الله بكل أنواع الدعوة، بالليل والنهار، سرًّا وعلانية، تارة بالترغيب، وأخرى بالترهيب، لكن أكثرهم استمروا على الضلالة والطغيان وعبادة الأوثان، وأعلنوا لسيدنا نوح العداوة فى كل وقت وأوان، وتَوَعَّدُوه ومَنْ آمن معه بالرَّجْمِ والإخراج، ونالوا منهم، وبالغوا فى أمرهم، وقال سادتهم وكبراؤهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[4].

---

(١) الأعراف: ٥٩.

(٢) نص الحديث رواه البخارى فى صحيحه، ورواه مسلم فى صحيحه أيضًا، والنسائى فى سننه، وأحمد فى مسنده.

(٣) الطاغوت: كُلُّ ما عُبِدَ من دون الله.

(٤) الأعراف: ٦٠.

فرد عليهم بقوله: ﴿لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] أى: لست على ضَلالَة كما تزعمون، ولكنى على الهدى المستقيم، وإنى رسولٌ من رَبِّ العالمين، أُبلغكم رسالات ربى وأنصحُ لكم، وأعلمُ من الله ما لا تعلمون.. وهذا شأن كل رسول أن يكون بليغًا وفصيحًا مع قومه، وناصحًا لهم: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾[2].

سفينة نوح عليه السلام

ولما يئس نوح ـ عليه السلام ـ من صلاحهم وإيمانهم، وعدم استجابتهم له، ورأى أنه لا خير فيهم، وقد عملوا على إيذائه ومخالفته وتكذيبه بكل طريقٍ، وإصرارهم على عبادة ما كان يعبدُ آباؤُهم من الأصنام والأوثان، دعا عليهم قائلاً: ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا﴾[3].

(١) الأعراف: ٦١.

(٢) هود: ٢٧ والملأ: السادة والرؤساء. وأراذلُنا: ضُعفاؤنا وفقراؤنا. وبَادِيَ الرأى: ظَاهره دون تعمق، ومن غير تريث ولا تفكر فى الوقوف على الحقيقة.

(٣) نوح: ٢٦ ـ ٢٨ وتبارًا: هلاكًا ودمارًا.

عند ذلك أمره الله ـ عز وجل ـ أن يصنع السفينة، التى لم يكن لها نظير قبلها، وكذلك قَدَّمَ الله تعالى إليه: أنه إذا جاءَ أَمْرُ الله وحل بهم بأسه الذى لا يُرَدُّ عن القوم الظالمين، أنه لا يُعَاوِدُهُ فيهم ولا يراجعه، فإن سيدنا نوحًا قد تدركه شفقة أو رحمة لقومه عند مُعاينَة العذاب النازل بهم، فإنه ليس الخبر كالمعاينة، حيث قال تعالى: ﴿**وَلَا تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ**﴾(١).

ويصنع نوح ـ عليه السلام ـ الفُلك، كما أمره الله عز وجل، فكان قومه كلما مروا به سخروا منه، فيرد عليهم بقوله: ﴿**إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ**﴾(٢).

وهكذا ظلوا على عنادهم وكفرهم حتى جاء أمر الله، ونزل بهم العذاب الأليم(٣).

وعن أبى صالح عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**يجىء نوحٌ عليه السلام وأُمته، فيقول الله عز وجل: هل بَلَّغْتَ؟ فيقول: نَعَمْ أَىْ رَبِّ. فيقول الله تعالى لأمته: هل بَلَّغَكُم؟ فيقولون: لا، ما جاءنا من**

(١) هود: ٣٧. ومعنى الآية: لا تَطْلُبْ منى إمهالَ هؤلاء الكفار، ولا تسألنى العفو عنهم، ولا تجزع أو تحزن عليهم حين تراهم وقد هلكوا بالغَرَق.

(٢) هود: ٣٨.

(٣) رواه البخارى.

نبى. فيقول لنوحٍ مَنْ يشهد لك؟ فيقول: محمد وأُمَّتُهُ. فتشهد أنه قد بَلَّغ»[1].

وصف السفينة

أَمَّا وصف السفينة التى صنعها نوح فهى ـ كما ورد فى صحيح البخارى ـ عن محمد بن إسحاق عن الثورى قال: كانت السفينة من خشب الساج، وقيل من الصنوبر، وهو نص التوراة. قال الثورى: وأمره الله تعالى أن يجعل طولها ثمانين ذراعًا، وأن يطلى ظاهرها وباطنها بالقار، وأن يجعل لها مقدمة تشق الماء.

وقال قتادة: كان طولها ثلاثمائة ذراع فى عرض خمسين ذراعًا، وهذا الذى فى التوراة على ما رأيته. وقال الحسن البصرى: ستمائة فى عرض ثلاثمائة. وعن ابن عباس: ألف ومائتا ذراع فى عرض ستمائة. وقيل: كان طولها ألفى ذراع وعرضها مائة ذراع. وقالوا كلهم: كان ارتفاعها ثلاثين ذراعًا، وكانت ثلاث طبقات، كل واحدة عشرة أذرع، فالسفلى للدواب والوحوش، والوسطى للإنسان، والعليا للطيور، وكان بابها فى عرضها، ولها غطاء من فوقها مُطْبَقٌ عليها.

أَمَّا من ركب فيها فقد اختلف العلماء فى عِدَّة مَنْ كان معه فى السفينة.

(١) رواه البخارى فى صحيحه، ورواه الإمام أحمد فى مسنده.

فعن ابن عباس: كانوا ثمانين نفسًا معهم نساؤهم. وعن كعب الأحبار: كانوا اثنين وسبعين نفسًا. وقيل: كانوا عشرة، وقيل: إنما كانوا نوحًا وبنيه الثلاثة، وكَنَائنه[1] الأربع، بامرأة «يام» الذى انخذل وانعزل عن أبيه ولم يركب معه فأُغرق، وهذا القول فيه مخالفة لظاهر الآية الكريمة، بل هى نص فى أنه قد ركب معه من غير أهله طائفة مَنْ آمنَ به، كما قال: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وقيل: كانوا سبعةً، وأمَّا امرأة نوح - وهى أم أولاده كلهم، وهم: (حام، وسام، ويافث، ويام) الذى أُغرق، ويسميه أهل الكتاب «كنعان» - فقد ماتت قبل الطوفان، وقيل: إنها غرقت مع مَنْ غرق، وكانت من الذين سبق عليهم القول لكفرها.

وجاء الطوفان استجابة لدعاء سيدنا نوح، وقال المفسرون: ارتفع الماء على أعلى جبل فى الأرض، وعَمَّ الماءُ جميعَ الأرض، طولها وعرضها، وجبالها وقفارها ورمالها، ولم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عين تطرف، ولا صغير ولا كبير[3].

وقال قتادة وغيره: ركبوا فى السفينة فى اليوم العاشر من شهر رجب، فساروا مائة وخمسين يومًا، واستقرت بهم على الجودىِّ شهرًا، وكان خروجهم من السفينة فى يوم عاشوراء من المحرم. وقد

(١) الكَنَّةُ: امرأة الابن، وجمعها: كنائن.

(٢) الشعراء: ١١٨.

(٣) قصص الأنبياء، ص ٧٦.

روى ابن جرير خبرًا مرفوعًا يوافق هذا، وأنهم صاموا يومهم ذلك[1].

وعن ابن عباس قال: كان مع نوح فى السفينة ثمانون رجلاً معهم أهلوهم، وأنهم كانوا فى السفينة مائة وخمسين يومًا، وأن الله وجه السفينة إلى مكة، فدارت بالبيت أربعين يومًا، ثم وجهها إلى الجودى فاستقرت عليه، فبعث نوح ـ عليه السلام ـ الغراب ليأتيه بخبر الأرض، فذهب فوقع على الجيف، فأبطأ عليه، فبعث الحمامة، فأتته بورق الزيتون، ولطخت رجليها بالطين، فعرف نوح أن الماء قد نضب، فهبط إلى أسفل الجودى، فابتنى قرية سماها ثمانى، فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانى لغات، إحداها العربية، وكان بعضهم لايفقه كلام بعض، فكان نوح ـ عليه السلام ـ يُعبر عنها[2].

وقال محمد بن إسحاق: لما أراد الله أن يكف ذلك الطوفان أرسل ريحًا على وجه الأرض، فسكن الماء، وانسدت ينابيع الأرض، فجعل الماء ينقص ويغيض[3] ويُدبر، وكان استواء الفلك ـ فيما يزعم أهل التوراة ـ فى الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه، وفى أول يوم من الشهر العاشر رُئِيتْ رءوسُ الجبال، فلما مضى بعد ذلك أربعون

(١) قصص الأنبياء: ٨٢.

(٢) البداية والنهاية (١/ ١٣٤).

(٣) غاضَ الماء: نَزَكَ فى الأرض وغاب فيها.

يومًا فتح نوح كَوَّةَ الفُلك[1] التى صنع فيها، ثم أرسل الغراب لينظر له ما فعل الماء، فلم يرجع إليه، فأرسل الحمامة، فرجعت إليه ولم يجد لرجلها موضعًا فَبَسطَ يده للحمامة، فأخذها وأدخلها، ثم مضت سبعة أيام، ثم أرسلها لتنظر له ما حَدَثَ فلم ترجع إليه، فَعَلِمَ نوحٌ أن الأرض قد برزت، فكشف نوح غطاء الفلك.

يقول الله عز وجل فى كتابه الكريم: ﴿**قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[2].

فَفَتَح نوحٌ أبوابَ السفينة، وأخرج ما بها من الحيوانات والطيور على اختلاف أنواعها، وأخرج جميع الكائنات التى حملها معه، وأخيرًا خرج هو وأصله، ومَنْ آمَنَ به، فعمروا الأرض، وزرعوها، وتنعموا بخيراتها، وهكذا دَبَّتْ فيها الحياة من جديد بعد أن غمرها الطوفان العظيم. وانقضت حياة نوح عليه السلام بعد أن عاش ألف سنة إلاَّ خمسين عامًا فى جهاد طويل وهو يُبَلِّغُ رسالة ربه، وهذا عمر الدعوة، أما بقاؤه فى الدنيا فاختلف فيه العلماء.

هذه هى قصة نوح ـ عليه السلام ـ وقصة السفينة التى بناها والتى تُعَدُّ من أكبر المعجزات التى أَيَّدَهُ الله تعالى بها، وفيها عبرة وموعظة خالدة للناس أجمعين.

(١) كَوَّة: نافذة. أو خَرْقٌ فى الجدار.

(٢) هود: ٤٨.